مكتبة القرآن

للدكتور محمد خلف الله أحمد
عميد كلية الآداب — بجامعة الإسكندرية.

اختص الله الأمة الاسلامية - فيما اختصها به من ضروب البر والتكريم - بأن أنزل على رسـولها كتابا مبيناً محفوظا على الأيام ، جمع لها فيه أصول العقيدة الدينية السليمة ، ورسم لها موازين الحياة الإنسانية الصالحة ، حكمته أن يجعل هذا الكتاب مصدر ثقافتها ومحور علومها التى عرفت بها بين الأمم. فإذا عدت روائع الكتب التى أثرت فى الحضارات الإنسانية عامة ، وافتخرت كل أمة بنصيبها منها كان من حق الأمة الإسلامية أن تضع على رأس قائمتها كتابها الأكبر الذى سارت وتسير على هدية مئات الملايين من البشر، وشاركت وتشارك فى دراساته جهود العلماء من مختلف الأجناس والملل

والحق أن الذى يتعرض للحديث عن هذا الكتاب يجد نفسه أمام بحر لا ساحل له ، وطود شامخ يصعب مرتقاه : فهو — من جهة — خاتمة الرسالات التى حملت هدى السماء إلى الأرض. وأنى لبشر أن يحيط بأسرار وحى السماء ! وهو - من جهة ثانية - برهان صدق مكن الله به لدينه وقطع حجة أعدائه ومعارضيه . ومن جهة ثالثة دستور محكم ، قامت على أساسه نهضة فقهية . وتشريعية ، واشتقت منه مناهج سلوك وأخلاق وتربية ، ومدارس تصوف وفلسفه . ومن جهة رابعة آية بيان وإعجاز ، سنت للأمة العربية طريق البلاغة والفصاحة وحفظت لها عبقرية لغتها حية متجددة على مر الأزمان. وكل واحدة من هذه الجهات فتحت أمام الباحثين فى مختلف العصور والبلاد آفاقا فسيحة من التأليف والتصنيف ، وأوحت اليهم بدراسات خصبة مازالت تنمو وتنضج حتى استوت فى النهاية علوما واضحة المعالم والحدود ،

هذا الكتاب الكريم سجل خالد

لأحداث الرسالة وكفاحها ، ونشوء الدولة الإسلامية وإرساء قواعدها . فعلى هدى نصوصه نستطيع أن نتابع ميلاد هذا الدين منذ أن هتف هاتف السماء بمحمد : (إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) إلى أن بلغ محمد رسالته ، وأدى أمانته ، وأوشك اللحاق بربه وجاء الأمر من السماء للمسلمين يقول(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

فى تلك المرحلة الزمنية الحافلة التى غيرت وجه التاريخ كانت آيات هذا الكتاب الكريم تنزل منجمة حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال. وكان يتولى كتابتها للرسول «على بن أبى طالب» و « عثمان بن عفان » فإن غابا كتبها « أبى بن كعب » « وزيد ابن ثابت » . وتوفى رسول الله وآيات القرآن وسوره مثبتة فى الصحف المتفرقه ، وفى صدور الحفاظ من الصحابة . فلما جاء « أبو بكر » أمر بجمع تلك الصحف فظلت عنده ، حتى انتقلت إلى « عمر » ثم إلى ابنته « حفصة » فلما تولى « عثمان » أخذ الصحف من حفصة وعهد إلى جمع الصحابة : منهم « زيد ابن ثابت » و «عبدالله بن الزبير» « وسعيد بن العاص» بجمعها فى مصحف وكتب منه نسخا وزعت على الأمصار وهكذا تم فى الاسلام وقبل عهد المطبعة وانتشار الكتابة جمع أول كتاب عربى إسلامى ونشره فى الأقطار على صورة محفوظة بأمر الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

هذه العملية الكبرى من الجمع والنشر ، والتى بدأها الرسول باتخاذ الكتاب لوحيه، وأتمها الخلفاء والقراء من أصحاب الرسول ، على طريقة دقيقة تمثل حلقة مهمة فى أمجاد الإسلام الثقافية ، وتحقق التوجيه الإلهى الذى تضمنته أول سورة نزلت من القرآن . وتدل كما قال العلماء دلالة لا يتطرق إليها الشك، على أن هذا الكتاب المتلو المحفوظ المرسوم فى المصاحف هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وتلاه على من فى عصره ثلاثا وعشرين سنة ، وقام به فى المواقف ، وكتب به إلى البلاد ، وتحمله عنه إليها من تابعه وظهر الظهور الذى لا يشتبه على أحد وانتشر فى أرض العرب كلها ثم انتشر فى الأمم المجاورة وفى الأمم البعيدة وحفظه الناس وتنقلت به الرجال

وتعلمه الكبير والصغير ، إذ كان عمدة دينهم، ومادة صلواتهم والمصدر الأول لأحكامهم ، وتناقله خلف عن سلف ثم مثلهم فى كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى إلينا كاملا محفوظا كما أنزل . وهذه خصوصيات الأمة الإسلامية وشواهد فضلها عند الله

هذا الكتاب المبين يصور لنا منهج الرسالة فى المرحلة المكية : من مناهضة الشرك . والدعوة للتوحيد ، وتمجيد الله والتسبيح بحمده . وتوجيه النظر إلى آثار قدرته ومظاهر نعمه ، ومجادلة المشركين، ودعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء. وإبراز العظمة فى أحوال الأمم السابقة ، وقصص الأنبيا. والرسل . وفرض الصلاة التى هى عماد الدين . ثم يصور كيف أخذ المنهج فى المرحلة المدنية صورة جديدة من الجهاد والتنظيم والتشريع : فأذن للمسلمين فى الدفاع المسلح عن أنفسهم ومقابلة العدوان بمثله ، وخاضت جماعتهم الناشئة سلسلة من المعارك والملاحم ، نصروا فى الكثير منها بإيمانهم وقوة يقينهم وسداد قيادتهم وهزموا فى بعضها حين أهملوا الأخذ بأسباب النصر والاتباع للخطة المرسومة ، وأكمل الله لهم قواعد دينهم من صيام وزكاة وحج ،ووضع لهم نظم معاملاتهم وأحوالهم الشخصية ، وسن لهم مبادىء الحياة الأخلاقية الفاضلة ، وأدبهم بأدب الاجتماع فأحسن تأديبهم . كل هذا فى نظم بديع وتأليف عجيب ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . لا يتفاوت ولا يتباين على كثرة الوجوه التى يتصرف فيها من تقويم وتشريع . وذكر وقصص ، ومواعظ وأحكام . ووعد ووعيد ، إنما هو أسلوب متناسب فى فصاحته ، بالغ فى تأثيره ، ينفذ إلى أعماق الضمائر ويأخذ بمجامع القلوب ، لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

وعلى هذا استقام للمسلمين فى حياة رسولهم كتابهم المشرع لدولتهم ، والمنظم لحياتهم . والموجه لعقولهم وقلوبهم وأذواقهم. فما فارقهم الرسول حتى انتدب أحبارهم للعناية بهذا الكتاب درساً وتفسيراً ، وحتى بدأوا يجندون لفهمه مأثور أدبهم ولغتهم . وما كاد ينتصف القرن الثانى من الهجرة، وتستعد عبقريتهم للبحث والتأليف ، حتى أخذوا يكتبون الرسائل والكتب فى معانى القرآن ومجازه . ونظمه وبيانه . ومحكمه ومتشابهه ، وغريبه ومشكله ، ثم آتى

تخصصهم العلمى ثماره منذ نهاية القرن الثالث . فألفت الكتب الجامعة فى التفسير والإعجاز ، وظهرت كتب النقد والبيان ، متأثرة بأدب القرآن كاشفة عن وجوه بلاغته وجلال نظمه ، وتتابعت جهود المؤلفين المسلمين فى الميادين القرآنية المختلفة ، واتسعت المكتبة الإسلامية فى هذه الميادين اتساعاً لم تحظ بمثلة مكتبات الأمم الأخرى . وأخذت البلاد الإسلامية فى الشرق والغرب نصيبها من هذه النهضة ، وكان لمصر ومعاهدها وعلمائها فى العصور الوسيطة نصيب موفور منها ، ولا يزال لها فى العصور الحديثة مكان الصدارة فى دراسات القرآن والعلوم الإسلامية التى تفرعت منه .

على أن أثر الكتاب الحكيم فى النهضة الفكرية للمسلمين لم يقف عند علوم القرآن وعلوم اللغة والأدب فحسب ، بل كان هو النبراس الذى اهتدى به فلاسفة الاسلام ومتكلموه فى معالجة قضايا الوجود ، وفى مناقشة التراث الفلسفى القديم ، وتعديل اتجاهاته وكان هو المعين الذى اغترف منه فقهاء المسلمين ومشرعوهم وعلماء الأخلاق والتربية والتصوف من بينهم ، وكان وسيظل - مصدر قوة المسلمين فى حياتهم وكفاحهم فى سبيل حرياتهم وجهادهم فى نشر مبادىء الخير والحق وتوفير الكرامة والعدالة لبنى الانسان على السواء .

والقرآن بعد هذا كله هو الكتاب الإسلامى الأول الذى حرص الغرب فى نهضته الحديثة على أن ينقله إلى لغاته ويشغل بدرسه . وقد تخصص فيه من الغربيين علماء مشهورون ، كتبوا فى تاريخه . وفى مذاهب تفسيره ، ونشروا بعض الدراسات الإسلامية القديمة عليه ، واستلهموه كثيراً من وجهات النظر فى بحوثهم التى قاموا بها عن الجبر والاختيار ، والخير والشر ، ونظرة الأديان إلى الإنسان وصلته بالله ، ومذاهب الأخلاق ونظرياتهم المختلفة وهكذا يتغلغل أثر القرآن فى الفكرة والحضارة ، وتشع منه أضواء المعرفة على الشرق والغرب ، ويحس المسلمون بالغبطة الروحية حين يذكرون أن ثقافتهم تفضل الثقافات الأخرى بذلك القبس السماوى الوضاء . وأن مناهج تربيتهم وتعليمهم تستمد أصولها وتوجيهاتها من كتاب الخالق الحكيم الذى يعلم أسرار النفوس وطبائعها ونزعاتها ، ويعلم مابه صلاحها وما به فسادها ، وأن تعاليم دينهم التى وضع نظامها ذلك الكتاب قد أثبتت على مر الأيام أنها أقوى غاية وأهدى سبيلا من النظم التى تحاول العقول البشرية الاتفاق عليها والوصول بها إلى ما يحقق سعادة المجتمع الإنسانى .